المنظومات الصّوفيّة في الجزائر
(منظومة الشّيخ محمّد السّكلاوي الزّواوي (ت1278هـ/ 1861م) أنموذجا)

حاج بنيرد
جامعة تيزي وزو (الجزائر)

الملخّص:

يُعدّ التّراث الجزائري تراثاً حافلا بالقيم والمعارف التي تركها لنا الأجداد، فقد صنّفوا في شتّى أنواع الفنون، وأثْروا الحياة الفكريّة والاجتماعيّة بمؤلفاتهم، وقد استأثرت العلوم الدّينيّة باهتماماتهم، من فقه وحديث وعربيّة وعلم كلام وتصوّف، وقد اشتهر الغرب الإسلاميّ كونه أرض الأولياء، وبرز منهم الكثير كابن عربي والشّاذلي وابن مشيش والشّشتري وابن سبعين وغيرهم كثير من أعلام المتصوّفة، كما كان منطلقا للطّرق الصّوفيّة الكبرى، كالتّيجانيّة وغيرها، وبرزت في نشر الإسلام في منطقة السّاحل الإفريقيّ وساهمت في محاربة التّنصير والاستعمار، وفي الجزائر ظهرت الطّريقة الرّحمانيّة نهاية القرن الثّامن عشر، وازداد نفوذها مع الاستعمار الفرنسيّ كممثّل للمقاومة الشّعبيّة في شرق الجزائر وجنوب تونس، وقد ساهم أعلامها في حركة التّأليف ونشر تعاليم الرّحمانيّة بداية برسائل مؤسّسها الشّيخ امحمّد بن عبد الرّحمن الأزهريّ، ووصولا إلى تلاميذه، بمؤلّفاتهم ومنظوماتهم الشّعريّة،

وتهدف هذه الدّراسة إلى التّعريف بإحدى هذه المنظومات لأحد أبرز شيوخ الطّريق الرّحمانيّة في القرن التّاسع عشر؛ وهو الشّيخ محمّد المهدي السّكلاوي، بالتّعريف به كونه غير مشهور، والتّعريف بمنظومته في مبادئ الطّريقة الرّحمانيّة، والّتي حقّقناها في موضع آخر، ومن ثمّة التّعرّض لمنهجه في نظمها عرضا وتحليلا ونقدا.

الكلمات المفتاحيّة: طرق صوفيّة، طريقة رحمانيّة، السّكلاوي، منظومات، تعاليم.

Sufi educational messages in Algeria
(The message of Sheikh Mohammed Saklawi as a model)

Absract:

Algerian heritage is a rich heritage of values and knowledge left by our ancestors, they classified in various types of arts, and enriched the intellectual and social life with their writings. Many of them emerged as the son of Arab, Shazli, Ibn Mishish, Shishtari, Ibn Saba'een and many other mystic flags. In Algeria, the Rahmani way emerged at the end of the eighteenth century, and its influence increased with the French colonialism as a representative of the popular resistance in eastern Algeria and southern Tunisia. This study aims at introducing one of these systems to one of the most prominent elders of the Rahmani road in the nineteenth century; And that we have achieved elsewhere, and then exposure to its approach in its systems offer, analysis and criticism.

Keywords: Sufi methods, Rahmani method, Saklawi, systems, teachings.

المُقدّمة:

يُعدّ التّراث الجزائري تراثاً حافلا بالقيم والمعارف التي تركها لنا الأجداد، فقد صنّفوا في شتّى أنواع الفنون، وأثْروا الحياة الفكريّة والاجتماعيّة بمؤلفاتهم، وقد استأثرت العلوم الدّينيّة باهتماماتهم، من فقه وحديث وعربيّة وعلم كلام وتصوّف، وقد اهتمّوا بالمتون التّعليميّة يُولونها عناية فائقة حفظا

وتدريساً وتأليفا، ولم يزل ذلك دأبهم منذ القديم، فاعتنوا في الفقه بالرّسالة ومختصر خليل لا يكادون يحتكمون إلى غيره، ثمّ جاء متن عبد الواحد ابن عاشر فعكفوا عليه أيضا، وفي علم الكلام قرّروا عقائد الإمام السّنوسي (ت895هـ) في تدريسهم ومجالسهم، أمّا المقدّمة الآجرّوميّة في النّحو فكانت عندهم أشهر من نار على علم، يُضاف إليها ألفيّة ابن معطي الزّواوي وألفيّة ابن مالك، وأمّا في الأخلاق والسّلوك فقد ولعوا بكتاب "الشّفا في التّعريف بحقوق المصطفى" للقاضي عياض (ت544هـ) وغيره يستمدّون من السّيرة العطرة، بل وصنّفوا في ذلك ونظموا في آداب الطّريق والتّصوّف؛ كمنظومة أبي مدين شعيب التّلمساني (ت594هـ) الّتي يقول في مطلعها: [البسيط]

مَـا لَــذَّةُ العَـيْشِ إِلّا صُــحْبَةُ الفُقَــرَا ... هُـمُ اَلسَّـلاطِينُ وَالسّـاداتُ وَالأَمَـرا[1]

وأمّا إذا وصلنا إلى القرن الثّالث عشر الهجريّ (ق19م) فيُعتبر تراث الطّريقة الرّحمانيّة ثريا؛ قدّره بعض الباحثين الأكاديميّين بعُشْر المؤلّفات الّتي وصلتنا، وأنّ أغلبه لا يزال مخطوطا أو مفقودا[2].

ويُعدّ الشّيخ عبد الرّحمن بن أحمد باش تارزي القسنطيني أصلا (ت1222هـ/ 1807م) - فيما وجدنا- أوّلَ من نظم قواعد التّصوّف وفقاً لمبادئ الطّريقة الرّحمانيّة، وهو أبرز تلاميذ مؤسّسها الشّيخ امحمّد بن عبد الرّحمن الزّواوي الأزهري (ت1208هـ/ 1793م)، وهو من مهّد الطّريق وأرسى قواعد التّحقيق في الطّريقة الرّحمانيّة؛ ويبدو أنّه اعتمد كثيرا في ذلك على رسائل شيخه امحمّد بن عبد الرّحمن الأزهري، وترجم كلَّ ذلك بمنظومته الموسومة بـ (المنظومة الرّحمانيّة في الأسباب الشّرعيّة المتعلّقة بالطّريقة الخلوتيّة)[3]، وفيها خمسمائة بيت، ومطلعها:

---

(1) انظر: عنوان التّوفيق في آداب الطّريق، تاج الدّين ابن عطاء الله السّكندري، المطبعة العثمانية المصرية، 1353 هـ، ص 3.

(2) انظر: الطّريقة الخلوتية الرّحمانية: الأصول والآثار، عبد المنعم قاسمي الحسني، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، 2009، ص 362.

(3) انظر: الطّريقة الخلوتية الرّحمانية: الأصول والآثار، عبد المنعم قاسمي الحسني، ص 263. وقد طُبعت ضمن الشّرح الذي وضعه عليها ابنه مصطفى بن عبد الرّحمان باش تارزي (ت 1252هـ/ 1836م) بتونس سنة 1890م/ 1307هـ على نفقة الشيخ محمد بن أبي القاسم الهاملي، ونفذت طبعتها الأولى فأُعيد نشرها مستقلّة عن الشّرح بمطبعة النّجاح بتصحيح الإمام عبد الحميد بن باديس سنة 1341هـ/ 1922. (انظر: نفسه، هامش ص441).

بِاسْـــمِكَ نَبْـــدَأُ يَـــا مُعِـــين وَالصَّـــلاَةُ عَـــلَى الأَمِـــين
مَـــــنْ أَتَانَـــــا بِـــــالتَّلْقِين فِي طَرِيـــــــقِ الأَوْلِيَـــــــا[4]

وهذه المنظومة كُتِبَ لها القَبول بين أتباع الطّريقة الرّحمانيّة، فعكفوا على حفظها ودراستها وشرحها، وقد شرحها ابنه مصطفى بن عبد الرّحمن باش تارزي (ت 1252هـ/ 1836م) بشرح سمّاه (المنح الرّبانيّة في بيان المنظومة الرّحمانيّة)[5]، ثمّ تلتها العديد من المنظومات في آداب الذّكر والطّريق، ومنها المنظومة السّنديّة لعطية بن خليف النائلي (ت قبل 1277هـ/ 1862م) نظم فيها رجال السّند في الطّريقة الرّحمانيّة، ومطلعها (قاسمي، 2009، ص433): [الرّجز]

يَقُـــولُ بَعْـــدَ الحَمْـــدِ وَالصَّـــلاَةِ عَـــلَى نَبِـــيٍّ جَـــاءَ بَالآيَـــاتِ
مُحَمَّـــــــدٍ وَالآلِ وَالأَصْـــــــحَابِ مَـــا فَـــاهَ أَهْـــلُ النُّطْـــقِ بِـــالجَوَابِ[6]

وله منظومة أخرى في آداب الطّريقة الرّحمانية وغيرها كثير ممّا حاول الأستاذ عبد المنعم القاسميّ جمعه[7].

ولم تزل قرائح مشايخ الرّحمانيّة تجود بمثل هذه الأرجوزات والمصنّفات بما يكاد يفوق الحصر، وتتبّع ذلك ربّما يَفْنى دونه العمر، إلى أن وقفتُ على منظومة بديعة في بابها، محكمة في نسجها وبنائها، وهي منظومة محمّد المهدي السّكلاوي (ت1278هـ/ 1861م)، فوجدتها أرجوزة وافية في بيان مبادئ الطّريقة الرّحمانيّة، فعقدت العزم على تحقيقها، وذلك بعد أن أرشدني أحد الأفاضل إلى مكانها، فشمّرت عن ساعد الجِدّ، وتركت لأجلها سوف وقَدْ، فوقفت لها على نسختين مخطوطتين، فقابلت بينهما ونسخت النّصّ بطريقة التّلفيق، وهي طريقة معروفة من طرق التّحقيق، مع الاعتماد على قرائن اللّغة وفنّ العَروض وسياق النّظم، وهذا بالطّبع عند تعارض النّسختين واختلافهما، أو عند اضطراب النّظم واختلاله، فاهتدينا إلى هذه المنظومة وِفْق ما أرادها النّاظم أو قريبا منها، وعَمَدت إلى شرح غريبها وغوامض بعض تراكيبها، وممّا يُلاحظ على هذه المنظومة أنّ السّكلاوي لم يعطها عنوانا ولم يؤرّخ لها، وهو خلاف المعروف في مثل هذه المنظومات عند المتأخّرين، فحاولت أن أعطيَها عنوانا

(4) انظر: المنح الرّبانيّة في بيان المنظومة الرّحمانيّة، مصطفى بن عبد الرّحمان باش تارزي القسنطيني، مخطوط بالمكتبة الموهوبية بجاية، 1ظ.
(5) انظر: نفسه، مخطوط، 2و.
(6) انظر: الطّريقة الخلوتية، ص 433. وقد نشرها كاملة محمّد الصّغير الجلالي في "تعطير الأكوان".
(7) انظر: نفسه، ص 316.

محاكيا في ذلك نسجهم، ومقتبسا من طريقتهم في عنونة الكتب والمنظومات، فاقترحت لها: "المنظومة السّكلاويّة في مبادئ الطّريقة الرّحمانيّة"، أو قل: منظومة السّكلاوي اختصارا، كما لم آلُ جهدا في تقويم اختلالاتها على الهوامش، متحرّياً أسلوب النّاظم ومقتبساً من مفرداته، وهذا بُغيَةَ الدّنوّ من النّصّ الأصلي ومُحاكاته، مُتحرّيا الإيجاز الشّديد أثناء التّقويم والتّعليق، لكي لا نثقل على القارئ الكريم.

فإن وُفّقت إلى الصّواب وحسن ردّ الجواب، فإنّني أبرأ من الحول والقوّة وأردّهما إلى الواحد الوهّاب، وإن زللت في شيء منها فمردّه إلى نفسي وإلى الشّيطان، ورحم الله امرؤاً قرأها واستفاد منها وقوّمها، وعفا عمّا وقعنا فيه من الزّلل، ودعا لناظمها بالرّحمة ولمحقّقها بحسن الخاتمة، والله المستعان وعليه التّكلان، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم.

ترجمة النّاظم (السّكلاوي):

هو محمّد المهدي السّكلاوي اليَراثني[8] الزّواوي الجزائري ذكره عبد الرّزاق البيطار (ت 1335هـ/ 1918م) في (حلية البشر في تاريخ القرن الثّالث عشر) في ترجمة تلميذه محمد الطّيّب المبارك (ت 1313 هـ/ 1896م)[9]، ولم يفرد للسّكلاوي ترجمة؛ وذكر أنّه كان الخليفةَ الأكبر للشّيخ علي بن عيسى البكري الخلوتي، وذكر أبو القاسم سعد الله -رحمه الله- أنّه وُلِد بدلّس حوالي سنة 1200هـ/ 1786م، وتوفّي بدمشق سنة 1278ه/ 1861م، ودُفِن بسفح جبل قاسيون، وقد كان من أنصار أحمد الطّيّب بن سالم خليفة الأمير عبد القادر في زواوة، ولّما فشلت المقاومة ضدّ الغزاة الفرنسيّين أفتى بضرورة الهجرة، وكتب يحثّ النّاس وأعيان زواوة على الهجرة إلى المشرق، وأعانه في ذلك أحمد الطّيّب بن سالم المذكور[10]، وقاد بنفسه مجموعة كبيرة من المهاجرين من مدينة دلّس إلى بلاد الشّام سنة 1263هـ/ 1847 م، ووصل نداؤه إلى أغلب الزّوايا الرّحمانية فأزعج ذلك السّلطات الفرنسيّة، وأطلقت المصادر الفرنسيّة عليه لقب المتعصّب الدّيني[11]، وقد رافقته عائلته في هجرته منهم ولده محمد الصّالح، وحصل من الدّولة العثمانيّة على أرض لنفسه وللمهاجرين الّذين كانوا معه،

(8) هذه النّسبة ذكرها سعد الله في تاريخ الجزائر الثقافي 7/ 132، ومعجم أعلام الجزائر، ص 353. وهي نسبة لقبيلة نايث إيراثن بالقرب من تيزي وزو.

(9) انظر: حلية البشر، 1/ 1372.

(10) انظر: تاريخ الجزائر الثّقافي، 5/ 479. نقلا من: مذكرة تاريخية عن القبائل الكبرى، المجلّة الإفريقيّة، 1904، ص 130.

(11) نفسه، 5/ 509.

وكان له تأثير على حركة التّصوّف بالشّام، وكانت له أوراد يلقّنها للمريدين، منهم بعض حُكّام دمشق وعلمائها؛ ومنهم المشير أحمد عزّت باشا[12]، وكانت له سمعة واسعة في الشّام والجزائر[13]، ومن تلاميذه محمّد المبارك (ت 1069ه)[14]، وهو ممّن هاجروا إلى الشّام أيضا مع أعيان زواوة، ومنهم الشّيخ محمد أمزيان الحدّاد شيخ زاوية صدّوق في وقته، وقد أذن له شيخه في رئاسة الطّريقة[15]، والّذي ترأّس المقاومة ضدّ الاستعمار الفرنسي فيما بعد.

ويُعدّ السّكلاوي من أبرز شيوخ الرّحمانية معدودٌ من وجهائها في الطّبقة الثّانيّة[16]، وممّن كانت له كلمةٌ نافذة وصِيتٌ واسعٌ بين مريدي الطّريقة الرّحمانيّة، وما استجابة الكثيرين لندائه بالهجرة إلى بلاد الشّام إلا دليل على ذلك.

تحقيق العنوان ونسبة المنظومة لصاحبها:

منظومة السّكلاوي في التّصوّف لم يعطها مؤلّفها عنوانا، كما أنّه لم يَذكر اسمَه خلال النّظم، وهو خلاف المعروف عند أهل هذا الشّأن، وقد اجتهدتُ في محاولة حساب الجمل في آخرها لإيجاد تاريخ تأليفها إلا أنّني لم أقف على ما يدلّ على ذلك، ولم يذكر أحدٌ ممّن ترجموا له أنّه ألّف تأليفا، ونعني بهم صاحب (حلية البشر)، و(معجم أعلام الجزائر)، و(تاريخ الجزائر الثقافي).

وقد نسب إليه هذه المنظومة الأستاذ عبد المنعم قاسمي الحسني في رسالته المقدّمة لنيل شهادة الدّكتوراه من كلية العلوم الإسلاميّة بجامعة الجزائر سنة 2009م، وقد اعتمد في ذلك على النّسخة المخطوطة المنسوبة إلى معهد الحضارات الشّرقيّة بجامعة طوكيو[17]، فقد جاء في نهايتها –حسبه-: "...منظومة الشّيخ المهدي السّكلاوي الإرثني عرشا الزّواوي الجزائري إقليما الأشعري اعتقادا المالكي مذهبا...".

---

(12) انظر: معجم أعلام الجزائر، ص 353.

(13) انظر: تاريخ الجزائر الثّقافي، 5/ 521.

(14) انظر: حلية البشر، 1/ 1375.

(15) انظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 7/ 132،131. وذكر بأنّ له تأليفا في الطّريقة الرّحمانية وصف فيه حالة البلاد غداة الغزو الفرنسي.

(16) انظر: الطّريقة الخلوتية الرّحمانية، ص 284 وما بعدها.

(17) انظر: نفسه، ص 284.

وعلى هذا الأساس أيضاً اعتمدتُ في نسبة هذه المنظومة إلى صاحبها محمّد المهدي السّكلاوي الزّواوي (ت1278هـ/ 1861م)، فقد وردت نسبة المنظومة في كلتا النّسختين اللّتين بين أيدينا إلى ناظمها محمّد المهدي السّكلاوي، فقد جاء في بداية نسخة جامعة تورنتو عبارة: "قال الشّيخ الوليّ الصّالح المسلك الزّاهد الورع شيخ الطّريقة والحقيقة شيخنا ووسيلتنا إلى ربّنا سيّدي محمد المهدي السّكلاوي الزّواوي"[18]، وفي ختامها جاءت عبارة: "انتهت وصيّة الشّيخ الكامل الواصل الولي المشهور، أستاذنا سيّدي محمد المهدي السّكلاوي المغربي الزّواوي"[19]، وأمّا نسخة معهد الدّراسات الشّرقيّة بجامعة طوكيو فقد جاء في بدايتها: "قال الشّيخ الولي الصّالح السّالك المسلك الزّاهد الورع شيخ الطّريقة والحقيقة أستاذ الأساتذة الشّيخ السّيّد محمد المهدي السّكلاوي الزّواوي المغربي"[20].

وهذا يجعلنا نعتقد بصحّة نسبة هذه المنظومة إلى صاحبها الشّيخ محمّد المهديّ السّكلاوي – رحمه الله تعالى–.

النُّسَخ المخطوطة للمنظومة:

اعتمدت في تحقيق هذه المنظومة على نسختين اثنتين، إحداهما تُنسب إلى جامعة تورنتو بكندا، والأخرى تُنسب إلى معهد الدّراسات الشّرقيّة بجامعة طوكيو:

النّسخة الأولى: وهي نسخة تُنسب إلى جامعة تورنتو بكندا، وهي في ثلاث ورقات من القطع الوسط ملوّنٌ بعض كلماتها بالأحمر وبعضها مشكول بالأسود أو الأحمر، وهي نسخة تامّة تبدأ بعبارة البسملة و"قال الشّيخ الوليّ الصّالح..."، وتنتهي بعبارة: "انتهت وصيّة الشّيخ الكامل الواصل الولي المشهور، أستاذنا سيّدي محمد المهديّ السّكلاوي المغربي الزّواوي تغمّده الله برحمته آمين، وأفاض علينا من بركاته وعلومه، ونفعنا به في الدّين والدّنيا والآخرة، آمين يا ربّ العالمين".

وهي مكتوبة بخطّ مغربي جميل متوسّط الحجم، في كل ورقة منها خمسة وعشرون سطراً إلى ستّة وعشرين سطرا، وفي كلّ سطر نحو ثلاث عشرة كلمة، ولهذا وجدنا أكثر من بيت واحد في السّطر.

(18) منظومة السّكلاويّ، مخطوطة تورنتو، 1ظ.

(19) نفسه، 3ظ.

(20) منظومة السّكلاوي، مخطوطة طوكيو، 1ظ.

وما يُلاحظ على هذه النّسخة أنّها مكتوبة بعد وفاة ناظمها الشّيخ السّكلاوي لوجود عبارة "تغمّده الله برحمته" في بداية المخطوط، ولا تخلو من بعض الأسقاط، كما أنّ اسم النّاسخ غير مذكور ولا تاريخ النّسخ، واعتمدت عليها بشكل كبير في إخراج النّصّ المحقّق، ورمزت لها بالرّمز (ت).

النّسخة الثّانيّة: وهي نسخةٌ تُنسب إلى معهد الدّراسات الشّرقيّة بجامعة طوكيو، وهي في خمس ورقات من القطع المتوسّط، وبحسب ترقيم الأوراق فهي تقع في مجموع، وتبدأ من 28 ظ إلى 33 و، وهي نسخة تامّة أيضا تبدأ بعبارة البسملة، وبعدها "قال الشّيخ الوليّ الصّالح..."، وتنتهي بعبارة "تمّت المنظومة بحمد الله تعالى وحسن عونه وتوفيقه ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم"، وقد كتب النّاسخ بيتا في آخر المخطوط، وهو بيتٌ يُنسب إلى أبي بكر الصّدّيق – رضي الله عنه- حين أصابته الحُمّى، فقال – رضي الله تعالى عنه-:

كُـــلّ امــــرئٍ مُصَـــبَّحٌ في أهلِـــهِ   وَالموتُ أَقـربُ مِـنْ شِرَاك نَعْلِـهِ[21]

وهذه النّسخة مكتوبة بخطّ مغربي كبير وواضح، وفي كلّ ورقة منها تسعة عشر سطرا، وكلّ سطر منها يحتوي بيتا واحدا، ويوجد فيها الكثير من التّصحيحات على حواشيها اعتمادا على نسخة أخرى بخطّ مغاير لخطّ النّاسخ مكتوب بالأحمر، كما أنّ بعض كلماتها مشكولٌ بنفس الخطّ، وهذا ما يؤكّد أنّها قوبلت على نسخة أخرى، ونظنّ أنّها منقولة من نسخة ربّما كُتبت في حياة ناظمها، لأنّها تخلو من عبارة "رحمه الله" أو ما يشبهها، ولكن بالنّظر إلى شكل الورق وطبيعته فنعتقد أنّ هذه النّسخة كُتبت في وقت متأخر منقولة عن نسخة قريبة من المؤلّف، ومع هذا ففيها الكثير من النّقائص المتمثّلة خصوصا في الأسقاط وبعض التّصحيفات والتّحريفات، وهذه النّسخة أيضا بغير عنوان ولا اسم ناسخ ولا تاريخ نسخ، ورمزت لها بالرّمز (ط).

منهجي في التّحقيق:

(21) هذا البيت ذكره أصحاب مَجامع الحديث، فذكره البخاري في أربعة مواضع؛ في باب كراهية النّبيّ – صلّى الله عليه وسلّم- أن تُعْرَى المدينة برقم 1889، وفي باب مقدم النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم- المدينة برقم 3926، وفي باب عيادة النّساء والرّجال برقم 5654، وفي باب من دعا برفع الوباء والحُمّى برقم 5677. وأخرجه أصحاب السّير كسيرة ابن هشام 1/ 588، وفي كتب الأدب ككتاب نهاية الأرب في فنون الأدب 15/ 381، وهو منسوب فيه إلى حكيم النّهشلي، وفي لسان العرب 2/ 505 منسوب لأبي بكر الصّدّيق أيضا، وقد ورد في كلٍّ منها بلفظ "أدنى"، وهو الصّواب بخلاف "أقرب" فهي لا توافق الوزن، وإنّما ذكرت هذا البيت هنا لأنّني حذفته من متن النّصّ المحقّق، فهو ليس من نظم السّكلاوي.

استوى عندنا شأن هاتين النّسختين من حيث خلوّهما من تاريخ النّسخ واسم النّاسخ، وتساويتا أيضا من حيث الأسقاط والتّصحيفات والتّحريفات هذا البيت ذكره أصحاب مَجامع الحديث، فذكره البخاري في أربعة مواضع؛ في باب كراهية النّبيّ – صلّى الله عليه وسلّم- أن تُعْرَى المدينة برقم 1889، وفي باب مقدم النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم- المدينة برقم 3926، وفي باب عيادة النّساء والرّجال برقم 5654، وفي باب من دعا برفع الوباء والحُمّى برقم 5677.

وأخرجه أصحاب السّير كسيرة ابن هشام 1/ 588، وفي كتب الأدب ككتاب نهاية الأرب في فنون الأدب 15/ 381، وهو منسوب فيه إلى حكيم النّهشلي، وفي لسان العرب 2/ 505 منسوب لأبي بكر الصّدّيق أيضا، وقد ورد في كلٍّ منها بلفظ "أدنى"، وهو الصّواب بخلاف "أقرب" فهي لا توافق الوزن، وإنّما ذكرت هذا البيت هنا لأنّني حذفته من متن النّصّ المحقّق، فهو ليس من نظم السّكلاوي.

مع الإشارة إلى أنّ نسخة جامعة تورنتو (ت) أفضل من هذا الجانب، إلا أنّ نسخة جامعة طوكيو (ب) لها أسبقيّة المراجعة والتّصحيح والمقابلة على نسخة أخرى من شخص آخر غير النّاسخ؛ لاختلاف خطّ متن النّظم مع التّصويبات والمُراجعات الموجودة في الهامش، ومع ذلك فلم تسلم من الأسقاط والتّصحيفات والتّحريفات ممّا جعلنا نزهد في اتّخاذها أصلا، وبناءً على ذلك اعتمدت على طريقة التّلفيق بين النّسختين؛ إذ إنّ النّسختين تكمّل إحداهما الأخرى فجبرنا كسر هذه بتلك، ورتقنا فتق إحداهما بالأخرى، واستعنا في ذلك باللّغة والنّحو والعَروض وسياق النّظم لتحقيق هذه المنظومة، فاكتمل النّصّ المحقّق على النّحو الّذي نحسب أنّ النّاظم – رحمه الله تعالى– أراده أو قريبا منه.

عملي في التّحقيق:

نسخ المنظومة من النّسخة (ط) ومقابلتها بالنّسخة (ت).

معالجة الأسقاط بالاعتماد على النّسختين معا، فما سقط من (ط) استدركته من (ت)، وما سقط من (ت) استدركته من (ط)، فقد سقط مثلا من النّسخة (ط) بيت كامل استدركته من (ت)، وهو البيت السّادس والخمسون في قوله:

وَعَلِمَ الشَّيْخُ بِأَنَّ حُرْمَتَهُ قَدْ سَقَطَتْ مِنْ قَلْبِهِ بِلَا شُبَهِ

عالجت التّصحيفات والتّحريفات الموجودة في النّصّ المحرّر اعتمادا على ما يلي:

اللّغة: فقد وجدنا في النّصّ عدّة أخطاء لغويّة رجعنا في تقويمها إلى اللّغة والمعاجم، مثل كلمة "تصفو" في البيت التّاسع وردت في النّسخة (ط): "تصف"، وفي (ت): "تصفى"، ولا وجه لهما، والصّواب ما أثبته يؤيّده سياق النّصّ، وربّما تعمّد النّاظم ذلك لموافقة الوزن كما في كلمة "فطين" من قافية البيت الثّاني والخمسين، وتصويبها في الهامش "فطن"، ولو أنّه لي هنا ملاحظة وهي أنّ عموم المغاربة يمُدّون أمثال هذه الكلمات مدّا زائدا موافقا للُكْنتهم ولو في غير النّظم.

النّحو: اعتمدنا في تصويب كثير من الكلمات على أساس النّحو، بالاستئناس طبعا إلى إحدى النّسختين، أو بالاستئناس إلى الوزن، مثل كلمة "لا تقول" في البيت الخامس عشر من النّسخة (ط)، في حين أنّ "لا" النّاهية جازمة؛ فالصّواب هو جزم الفعل "تقول" فتصبح "لا تقل" بالاستئناس طبعا إلى النّسخة الأخرى، وكذلك في البيت السّابع والعشرين في كلمة "يُرِدْ" وردت في (ط) "يريد"، والصّواب الجزم باسم الشّرط "مَنْ"، وفي البيت الثّالثين بعد المائة جاء في كلتا النّسختين فعل الأمر "استحِ" بالمدّ "استحي"، والتّصويب تقتضيه قوانين النّحو؛ أي الجزم بحذف حرف العلّة، ويؤيّده وزن البيت أيضاً.

العَروض: هذه المنظومة أرجوزة من البحر الرّجز، وهذا ضابط قويّ اعتمدت عليه في علاج اختلالات النّظم، فلا يليق أن يُنسب بيت ركيك مختلّ الوزن للعلامة السّكلاوي، إلا على سبيل السّهو والنّسيان، ولهما من كلّ إنسان نصيب، وضابط الوزن مُرجِّح قويّ عند تعارض النّسختين أو اختلافهما، مثل كلمة "الأنواع" في البيت الثّامن في النّسخة (ت) وردت في النّسخة (ط) "أنواعه"، والوزن لا يستقيم بها فأثبتنا الصّواب من النّسخة (ت) اعتمادا على الوزن.

وفي البيت الخامس والستّين كلمة "الأبصاره" وردت في النّسخة (ت) "البصيره"، وهي وإن وافقت الوزن إلا أنّها خالفت القافية في الضّرب في كلمة "الزّياره".

وبالعَروض أيضا نتبيّن الأسقاط والزّيادات الواردة في إحدى النّسختين أو كلتيهما، مثل كلمة "أو" في البيت الثّالث والعشرين في النّسخة (ط) وردت زائدة الألف، وتصويب الواو من النّسخة (ت) إنّما كان لمراعاة الوزن، وفي البيت الثّالث والسّبعين حكمنا على زيادة كلمة "أي" في (ط) بنفس الطّريقة.

وأمّا إذا كانت الكلمة قد تسبّبت في خلل بسيط في الوزن دون أن يتأثّر إيقاع البيت تأثّراً واضحا، أو على وضوح المعنى فإنّني أثبت ما اتّفق في النّسختين مع الإشارة إلى الأصوب في الهامش،

مثل كلمة "يديْ" بالمثنّى في البيت السّابع والثّلاثين، اختلّ الوزن بها بزيادة ساكن، وعند حذف الزّائد تصبح كلمة "يد" بالمفرد، وهو الأصوب وقد أشرنا إليه في الهامش.

السّياق: وله دورٌ كبيرٌ أيضاً في إثبات هذه اللّفظة أو تلك، فمراعاة توازن المعنى الّذي ينبغي أن يصل إلى القارئ له سلطانه في تحقيق النّصّ، فمثلا في عجز البيت الواحد والخمسين وردت كلمة "احضر" – بالضّاد- في النّسخة (ط) "احذر" – بالذّال–، ولا وجه للتّحذير في سياق قوله:

اَلشَّــيْخُ يَــأْمُرُ وَيَنْهَــى الإِخْــوَانْ　　　تَصْـرِيحاً أَوْ تَلْوِيحـاً اُحْضُــرِ الجِنَـانْ

واكتفيت بهذا التّمثيل لأنّ تتبّع ذلك يطول، وليس المقام مقام حصر النّماذج، وإنّما القصد التّمثيل على كلّ نوع ممّا ذكرنا في منهجيّة التّحقيق.

توثيق النّصوص من الآيات التي اقتبسها أو أشار إليها وكذلك الأحاديث.

شرح ما لابدّ منه في فهم النّصّ، سواء تعلّق بالمفردات الصّعبة، أو معاني التّصوّف؛ وإن كانت في الغالب واضحة لا تحتاج إلى شرح، أو التّراكيب الغامضة؛ خصوصا في الأبيات المدوّرة الّتي يرتبط المعنى فيها بالبيت السّابق أو المُوالي فيلتبس على القارئ.

ضبط النّصّ بالشّكل التّامّ، مراعياً في ضبط النّصّ سلامة اللّغة بالرّجوع إلى معاجمها، وإقامة الوزن وفق بحر الرّجَز، كما في قوله في صدر البيت الّرابع عشر: "كالكذب بالصّدق كذا الخيانه"، فضبط كلمة "الكَذِب" بالشّكل المعروف؛ أي بفتح الكاف وكسر الذّال، مفسدٌ للوزن، والأصوب أن تُضْبَط بكسر الكاف وسكون الذّال أي الكِذْب، وهو لغة في الكَذِب، وعلينا حينئذٍ أنْ نتحقّق من ذلك بالرّجوع إلى معاجم اللّغة، ووجدناها كذلك في (معجم الصّحاح، 1/ 210 "كذب")، والله وحده الموفّق للصّواب.

تجزئة منظومة السّكلاوي بوضع عناوين فرعيّة لكلّ جزء أو فكرة، تسهيلا للفهم وترغيبا في الحفظ.

تصويب ما أمكن تصويبه من اختلالات في الوزن والقافية أو صياغة الأسلوب من خلال الهوامش، وسيأتي تفصيل ذلك بعد قليل في مآخذنا على منظومة السّكلاوي.

نقد منظومة السّكلاوي:

موضوعها وأهمّ ما جاء فيها:

منظومة السّكلاويّ الّتي بين أيدينا تحتوي على مائة وتسعة وسبعين بيتا، وهي عبارة عن وصيّة جامعة تشرح آداب الطّريقة الرّحمانيّة وتعاليمها، وقد أراد السّكلاوي أن يوجّه نصائحه للمُريد المبتدئ، وما يتعيّن عليه ليصحّ خلُقه وسلوكه ويهتدي بها إلى معالم الهدى والطّريق، فقد قال في مقدّمتها:

وَبَعْــدُ هَــاكَ رَجَــزاً لِلْمُبْتَــدِي ... يَكُــونُ سَــالِكاً بِــهِ وَيَهْتَــدِي

ومع ذلك فهي لاتعني المبتدئ وحده، بل يشمل اهتمامُه الطّالبَ المتوسّط والمنتهي، بل وصلت نصائحُه وتوجيهاته إلى المربّين والشّيوخ في كيفيّة معاملة المُريدين؛ فقد قال في شأنهم مثلا:

يَمْــنَعُهُمْ مِــنْ كَثْــرَةِ الكَــلَامِ ... وَالنَّــوْمِ وَالضَّــحِكِ وَالطَّعَــامِ

وقد نظم السّكلاوي منظومته نسقاً واحداً بلا فصل على بحر الرّجز، فابتدأها بمقدّمة على طريقة أصحاب المنظومات التّعليميّة كالألفيّة ونظم ابن عاشر، فاستهلّها بالحمدلة والصّلاة على النّبيّ وآله – صلّى الله عليه وآله وسلّم–، مبيّنا الغرض منها، والمصادر الّتي استلهم منها منظومته؛ فقال:

جَمَعْتُــهُ مِــنْ كُتُــبِ الطَّرِيقَــهْ ... أَصْــلِ الشَّــرِيعَةِ كَــذَا الحَقِيقَــهْ

ولا شكّ بأنّه اعتمد في نظم أرجوزته على أمّهات كتب التّصوّف، وبالأخصّ مؤلّفات شيوخ الرّحمانيّة؛ كدفاتر الأزهري لمؤسّس الطّريقة الرّحمانيّة الشّيخ محمّد بن عبد الرّحمن الأزهري (ت 1208ه/ 1793م)، وهي مجموعة من رسائله وتعاليمه إلى أتباعه في الجزائر[22]، وشرْحه على قصيدة عبد الله الرّيفاوي المصري، وربّما استأنس بـ "المنظومة الرّحمانيّة في الأسباب الشّرعيّة المتعلّقة بالطّريقة

(22) انظر: الطّريقة الخلوتية الرّحمانيّة، ص 378– 387.

الخلوتيّة" للشّيخ عبد الرّحمان بن أحمد باش تارزي (ت 1222ه/ 1807م)، وكتابه "غنية المريد في شرح نظم مسائل كلمتي التّوحيد"؛ وكان مشهورا متداولا بين زوايا الرّحمانيّة[23].

ثمّ توجّه إلى المريد المبتدئ بالنّصائح المفيدة، التّي ترتكز على منهج أصيل في التّربيّة وهو التّخليّة قبل التّحليّة، فعلى المريد أن يتخلّى عن حظوظ النّفس من الكِبْر والرّياء والنّميمة، وبعدها عليه أن يتحلّى بما يضادّ كلّ خصلة ذميمة بخصلة حميدة، فيستبدل الصّدق بالكذب وهكذا، ثمّ انتقل إلى اختيار الشّيخ وحسن الأدب معه والصّحبة؛ إذ هو الدّليل إلى طريق الهداية، ودعاه إلى التزام نصائحه والاكتفاء بما يوجّهه إليه، ثمّ توجّه إلى الشّيخ بالإرشاد إلى كيفيّة التّربية والمعاملة مع مريديه بالرّفق مع المبتدئين وبالحزم مع الرّاسخين أو المستهترين، ثمّ عاد بخطابه إلى المريد بحسن الاعتقاد في شيخه وحسن الظّنّ به وترك الاعتراض عليه، وأنّه بقدر محبّته له وطاعته تحصل له بركة الطّريق، ونصَحه عند فقد الأشياخ بالتزام الذّكر وحسن الخلق، وبعدها استوصاه بإخوانه خيرا باحترامهم والدّفاع عنهم والإحسان إليهم. ثمّ رجع إلى المريد المبتدئ فأعطاه جملة من التّعاليم؛ من قيام اللّيل وملازمة التّلاوة والأذكار، والأخذ بالعزائم وتجنّب الرّخص، وتجنّب المحرّمات ومعاشرة ما يصدّه عن الطّريق أو ينقص درجته ونحو ذلك. وبعدها ذكر أحوال النّفس السّبع وما يلائم كل حال من أنواع الذّكر؛ ومراتب النّفس عند شيوخ الرّحمانيّة سبعة، لكلّ مرْتبة منها حال وذكر يناسبها، وقد ذكرها النّاظم – رحمه الله تعالى– مجملة، ثمّ أتبعها بالذّكر المناسب لها على طريق اللّفّ والنّشر المرتّب: فالنّفس الأمارة يناسبها الذّكر بـ "لا إله إلا الله"، والنّفس اللّوّامة يناسبها الذّكر بالاسم المفرد "الله"، والنّفس الملهمة تلقّن اسمه تعالى "هو هو هو"، والنّفس المطمئنّة تُلقّن اسمه تعالى "حقّ حقّ حقّ"، والنّفس الرّاضية تُلقّن اسمه تعالى "حيّ حيّ حيّ"، والنّفس المرضيّة تُلقّن اسمه تعالى "قيّوم قيّوم قيّوم"، والنّفس الكاملة تلقّن اسمه تعالى "قهّار قهّار قهّار"، محدّدا أوقات الذّكر حاثًّا على المحافظة على صلاة الجماعة، وانتقل إلى بيان جواز قبول الصّدقة الّتي لا منّ فيها ولا أذى، وحذّر من الصّدقة الّتي لا نيّة فيها، ثمّ انتقل إلى تهذيب النّفس والتّحذير من الدّنيا والشّيطان، والحثّ على قراءة القرآن والتّدبّر في معانيه، ثمّ ذكر بعد ذلك جملة من الخصائص الّتي يُعرف بها أهل الولاية، كالاقتداء بالكتاب والسّنّة وبذل النّصيحة ونحوها، ثمّ عاد مجدّداً إلى التّحذير من غوائل النّفس والأسباب المؤدّية إلى ذلك، والتّحذير من طلب الكرامات والمكاشفات والالتفات إليها، وأنّ الأهمّ هو طلب رضى الله سبحانه والاستقامة، وختم بالحمد والصّلاة على النّبيّ وآله – صلّى الله عليه وآله وسلّم–.

التّضمين (التّناصّ):

---

(23) انظر: نفسه، 461 وما بعدها.

لقد تأثّر النّاظم – رحمه الله تعالى- بالنّصوص الّتي سبقته، وهي ظاهرة طبيعيّة في تاريخ التّأليف ومسار المؤلّفين، ولهذا لاحظناه ضمّن الكثير من النّصوص في منظومته هذه، وذلك باعتبار موضوعه في التّصوّف والتّديّن المتين، وأيضا من حيث كونُه نظما، فلا غرو حينئذٍ أن يستمدّ من النّصوص الدّينيّة، أو أن يتأثّر بالصّياغة النّظميّة – إن صحّ التّعبير- عند أصحاب المنظومات الّتي كانت متداولة بشدّة في الزّوايا عموماً وفي منطقة زواوة خصوصا؛ كألفيّة ابن مالك ونظم ابن عاشر الموسوم بـ "المرشد المعين على الضّروريّ من علوم الدّين"، ويمكننا أن نصنّف هذا التّضمين إلى صنفين اثنين؛ هما تضمين مباشر، وتضمين غير مباشر:

التّضمين المباشر: وهو ما لا نحتاج فيه إلى نظر لمعرفته، بل نكتشفه عند أوّل قراءة، كالآيات والأحاديث، كقوله مثلا:

إِنْ يَعْلَـــمِ الـــرَّحْمَنُ فِي قُلُـــوبِكُمْ   خَـــيْراً يُجَـــازِكُمْ بِـــهَا وَعَـــدَكُمْ

يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾ [سورة الأنفال: 70]

وكقوله:

هَـــذَا طَرِيـــقُ الحَـــقِّ فَاتْبَعْـــهُ وَمَـــا   رَأَيْـــتَ مِـــنْ خَلَلِـــهِ اِقْـــرَأْ "إِنَّـــمَا
اَلْمُومِنُـــونَ إِخْـــوَةٌ فَأَصْـــلِحُوا"   بَيْـــنَهُمُ وَبِالرَّشَـــادِ فَانْصَـــحُوا

يُشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾ [سورة الحُـجُـرات: 10]

وكقوله أيضاً:

وَأَحْسِـــنِ النِّيَّـــةَ فِي كُـــلِّ عَمَـــلْ   أَخْبَرَنَـــا بِـــذَا النَّبِـــيُّ الْمُرْسَـــلْ

يُشير إلى حديث النّبيّ – صلّى الله عليه وسلّم- في قوله: "إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّات".

التّضمين غير المباشر: وهو ما لا يتأتّى إلا بالنّظر، وبالدّراية بمتون التّراث الّتي درسها هؤلاء العلماء، وكانت من المقرّرات الدّراسيّة عندهم، يشبّ عليها الطّالب ويشيب معها العالم دراسة وتدريسا وشرحاً وتحشية، ونقصد هنا ألفيّة ابن مالك ومتن ابن عاشر على وجه الخصوص، وهما أكثر

المنظومات تداولا في عصر المؤلّف، ولا شكّ أنّه قد تأثّر بها تأثّراً واضحا، أدّى به إلى الاقتباس منهما شَعَرَ بذلك أم لم يشعر، وسنشير إلى بعض الأمثلة تدليلا لا تتبّعا، لأنّ ذلك يطول ولا طائل تحته، فمن ذلك قوله:

وَمَـــنْ نَـــوَى تَـــدْبِيرَهُ أَحْسَـــنَ مِـــنْ   تَـــدْبِيرِ شَـــيْخِهِ فَمَقْطُـــوعٌ زُكِـــنْ

فلفظة "زُكِنْ" بما يشبه هذه الصّياغة وجدت لها ثلاثة مواضع في ألفيّة ابن مالك، وهي قوله:

إِعْـــمَالُ لَـــيْسَ أَعْمِلَـــتْ مَـــا دُونَ إِنْ   مَـــعَ بَقَـــا النَّفْـــيِ وَتَرْتِيـــبٍ زُكِـــنْ

وقوله:

وَالفَتْحَ وَالكَسْرَ أَجِـزْ فِي السِّـينِ مِـنْ   نَحْـوِ عَسَـيْتُ وَانْتِفَـا الفَـتْحِ زُكِـنْ

وقوله:

كَـــذَا تَعَلَّـــمْ وَلِغَـــيْرِ المَـــاضِ مِـــنْ   سِـــوَاهُمَا اِجْعَـــلْ كُـــلَّ مَـــا لَـــهُ زُكِـــنْ

وكقول النّاظم أيضا:

وَالحِقْـــدِ وَالحَسَـــدِ وَالغِـــلِّ كَـــذَا   كُـــلّ مِـــنَ الأَنْـــوَاعِ فَاجْتَنِـــبْ أَذَى

وقوله:

إِنْ كَـــانَ فِيـــكَ رَاغِبـــاً فَحَبَّـــذَا   أَوْ لَا فَـــــــرُدَّهُ وَلَا تَقْبَـــــــلْ أَذى

يُشبه قول ابن مالك في قوله:

وَتَـــاءِ تَأْنِيـــثٍ تَـــلِي المَـــاضِي إِذَا   كَـــانَ لِأُنْثَـــى كَأَبَـــتْ هِنْـــدٌ الأَذَى

ويشبه قول ابن عاشر:

مَنْدُوبُـــهُ البَـــدْءُ بِغَسْـــلِهِ الأَذَى   تَسْـــمِيَةٌ تَثْلِيـــثُ رَاسِـــهِ كَـــذَا

وتضمين آخر في قول النّاظم:

بِالـــذَّوْقِ لَا بِـــالعِلْمِ ثُـــمَّ بَعْـــدَ ذَا   لَا بَـــأْسَ إِنْ كَـــانَ بِإِذْنِـــهِ خُـــذَا

يشبهه قول ابن مالك:

وَالثَّـانِي اُجْـرُرْ وَانْـوِ مِـنْ أَوْ فِي إِذَا لَمْ يَصْـلُحْ إِلَّا ذَاكَ وَالـلَّامَ خُـذَا

وتأثُّرُ السّكلاوي بكتاب "مبادئ التّصوّف وهوادي التّعرّف" من نظم ابن عاشر واضحٌ جليّ، فبمجرّد المقارنة الأولى يظهر التّشابه، ولنكتفِ ببعض الأمثلة تدليلا، كقول السّكلاوي:

يَخْتَـارُ شَـيْخاً كَـامِلاً يَصْـحَبُهُ يَأْخُـذُ عَهْـدَهُ وَلَا يَتْرُكُـهُ

نظيره قول ابن عاشر:

يَصْـحَبُ شَـيْخاً عَـارِفَ المَسَـالِكْ يَقِيـهِ فِي طَرِيقِـهِ المَهَالِـكْ

وقول السّكلاوي:

فَـلَا يُفَـارِقُ المُرِيـدُ شَـيْخَهُ حَتَّـى يَكُـونَ عَارِفـاً طَرِيقَـهُ

نظيره قول ابن عاشر:

يَصِـيرُ عِنْـدَ ذَاكَ عَارِفـاً بِـهِ حُـرًّا وَغَـيْرُهُ خَـلَا مِـنْ قَلْبِـهِ

وتتبّعُ هذه الظّاهرة في نظم السّكلاوي بالمقارنة مع غيره من المنظومات التّعليميّة يطول، واكتفيت ببعض التّمثيل من ألفيّة ابن مالك ونظم ابن عاشر فرارا من التّطويل، وهذه الظّاهرة ليست خاصّة بالسّكلاوي أو بالنّظم في حدّ ذاته، وإنّما تشمل شتّى صنوف التّأليف وأنماطه، ومع الكثير من العلماء والمؤلّفين أيضا.

هناتها ومآخذها:

لا يسلم تأليفٌ ولا نظمٌ من المؤاخذات لأنّها طبيعة البشر، ومن أهمّ المؤاخذات على نظم السّكلاوي ما يلي:

لم يعط لها عُنوانا، كما أنّه لم يذكر اسمه في البداية، وهو خلاف المعروف في مثل هذه المنظومات، فقد قال ابن عاشر (ت 1040 هـ) في بداية نظمه:

يَقُـولُ عَبْـدُ الوَاحِـدِ ابْـنُ عَـاشِرِ مُبْتَـدِئاً بِاسْـمِ الإِلَـهِ القَـادِرِ

وقد قال ابن مالك (ت 672 هـ) قبله في الألفيّة:

قَــالَ مُحَمَّــدٌ هُــوَ ابْــنُ مَالِــكِ　　　أَحْمَــدُ اللهَ رَبِّي خَــيْرَ مَالِــكِ

لم يُرتّب السّكلاوي منظومته بشكل مُحكم، فنراه ينتقل من فكرة إلى فكرة ثمّ يرجع مجدّداً إليها، فنراه مثلاً يتحدّث عن آداب المُريد ثمّ يتوجّه إلى الشّيخ المُربّي بالنّصح والتّوجيه، ليعود مجدّداً إلى المريد بالخطاب والإرشاد، لينتقل بعدها إلى أقسام النّفس وما يتبعها من أحكام الذّكر، ليرجع في النّهاية إلى المريد محذّراً إيّاه من طلب المكاشفات والكرامات.

وهذا التّرتيب المتناوب – إن صحّ التّعبير- يدلّ على حرصه على حصول الثّقة في العلاقة بين الشّيخ ومريديه، لأنّه انتقل بينهما كثيرا، فهو وإن لم يفصح عن ذلك إلا أنّ شغله الشّاغل – من خلال الخطاب المتناوب- قائم على الرّغبة في إحكام نسيج العلاقات الرّوحانيّة بين شيوخ الطّريقة وأتباعها.

لم تسلم الكثير من الأبيات من الاختلال في النّظم من حيث الوزن أو القافية، وقد أحصيت في هذا الصّدد ثمانيّة أبيات خالف فيها النّاظم إيقاع النّظم، فممّا اختلّت قافيته قوله:

إِنْ تُرِكَــتْ أَوْصَــافُهُ القَبِيحَــهْ　　　تَبَــدَّلَتْ بِغَيْرِهَــا حَمِيــدَهْ

فحرف الرّويّ في الضّرب هو الدّال والهاء للسّكت، بينما في العَروض هو الحاء، وقد حاولت إصلاح هذا البيت في الهامش بقولي:

إِنْ تُرِكَــتْ أَوْصَــافُهُ القَبِيحَــهْ　　　تَبَــدَّلَتْ بِغَيْرِهَــا مَلِيحَــهْ

وكقوله أيضاً:

إِنَّ النَّبِــي شَــبَّهَهَا بِالجِيفَــهْ　　　رَاغِبُهَــا كَالكَلْــبِ لَا مَحَالَــه

واختلال القافية ظاهر؛ وذلك على مستوى حرف الروي بين الفاء واللام، وكان يحسُن لو قال مثلا:

إِنَّ النَّبِــي شَــبَّهَهَا بِالجِيفَــهْ　　　رَاغِبُهَــا سَــاعٍ أَرَادَ حَتْفَــهْ

وممّا اختلّ وزنه قوله:

اَلشَّــيْخُ يَــأْمُرُ وَيَنْهَــى الإِخْــوَانْ　　　تَصْــرِيحاً أَوْ تَلْوِيحــاً اُحْضُــرِ الجِنَــانْ

فالشّطر الثّاني ظاهر الاختلال، ولا يناسب بحر الرّجَز، كما أنّ معناه غامض، ولا يمكن توجيهه إلا ببعض التّعسّف، ولا يصحّ هنا، لأنّ المقام مقام خطاب المبتدئين، وينبغي الوضوح والبساطة، وكان يحسُن لو قال مثلا:

اَلشَّـيْخُ يَـأْمُرُ وَيَنْهَـى الإِخْـوَانْ   مُصَـرِّحاً مُلَوِّحـاً بِـذَا البَيَـانْ

وممّا اختلّ وزناً وقافية قوله:

لَا تَـتْرُكِ القُـرْآنَ وَاجْعَلَـنْ لَـهُ   وِرْداً بِمُصْـحَفٍ وَلَا تَنْسَـهُ

وهو ظاهر الاختلال أيضاً، وكان من الأفضل أن يقول مثلا:

لَا تَـتْرُكِ القُـرْآنَ وَاجْعَلَـنْ لَـهُ   وِرْداً بِمُصْـحَفٍ وَلَا تَمَلَّـهُ

وهناك ما اجتمع فيه إلى اختلال القافية ضعفُ الصّياغة وركاكة الأسلوب، كقوله:

وَهْـوُ رِضَى المَـوْلَى وَالِاسْـتِقَامَهْ   وَغَـيْرُ ذَا خَسَـارَةٌ غُبَـارَهْ

واقترحت في الهامش التّصويبَ كما يلي:

وَهْـوُ رِضَى المَـوْلَى وَالِاسْـتِقَامَهْ   وَغَـيْرُ ذَا خَسَـارَةٌ نَدَامَـهْ

هذا آخر ما وفّقني الله تعالى إلى دراسته ونقده والتّعليق عليه.

الخاتمة:

لقد نشطت حركة التّصوّف في الغرب الإسلامي بعد القرن السّابع الهجري، وازدادت توهّجا في القرون الموالية، وخاصّة بعد انتشار الزّوايا والرّباطات، ممّا مهّد لنشوء الطّرق الصّوفيّة وتنوّعها، وانتشارها وتوسّعها في الغرب الإسلامي، وفي إفريقيا جنوب الصّحراء.

تصدّرت الطّرق الصّوفيّة المشهد الدّيني والثّقافيّ في الغرب الإسلامي، واستطاعت خلق سلطة موازية لها نفوذ واسع على مجتمعات شمال إفريقيا وإفريقيا جنوب الصّحراء، كما ساهمت في تنظيم هذا المجتمع واحتوائه وتسييره أيضا.

استطاعت الطّرق الصّوفيّة التّصدّي في كثير من الأحيان إلى الغزو الأجنبي؛ وبالأخصّ الغزو الإسباني في أعقاب سقوط الأندلس، وتنظيم حركات المقاومة الشّعبيّة ضدّ الاستعمار الأوروبي، وخاصّة الاستعمار الفرنسي.

انتشرت الطّريقة الرّحمانيّة في الجزائر خلال القرن التّاسع عشر بعد موت مؤسّسها الشّيخ امحمّد بن عبد الرّحمن الأزهري سنة 1793م، وخاصّة في الشّرق الجزائري وشمال الصّحراء وجنوب تونس، وصار لها نفوذ واسع ومريدون كثيرون وأملاك واسعة، واستطاعت تنظيم العديد من الثّورات ضدّ الاستعمار الفرنسي؛ كثورة الزّعاطشة وثورة الشّيخ الحداد وغيرها، وانتهت في معظم الأحيان بأسر شيوخها أو نفيهم أو هجرتهم إلى المشرق وخاصّة بلاد الشّام، ومن هؤلاء المهاجرين الشّيخ محمّد المهدي السّكلاوي.

اشتهر كثير من شيوخ الرّحمانيّة بمؤلّفاتهم ومنظوماتهم في شرح تعاليم الطّريقة الرّحمانيّة، ومن أبرزهم الشّيخ محمّد المهديّ السّكلاوي، واشتهر بمنظومته في مبادئ الطّريقة الرّحمانيّة، وقد برز بمنهجه التّربوي، الّذي يستمدّ من التّراث العربي الإسلاميّ.

ركّز الشّيخ السّكلاوي على تربية المريدين والرّفق بهم، وركّز كثيرا على علاقة الشّيخ بهم، وأعطاها أهمية قصوى في أرجوزته، بالحرص على حسن التّعليم والتّربية والتّمسّك بالأخلاق الفاضلة، وهو في هذا الحرص ينطلق من واقعه في الغربة، وقد عاين تشتّت شيوخ الطّريقة الرّحمانيّة ومعاناتهم، وبالتّالي فإعادة ترتيبها يتطلّب حذرا خاصّا ويقظة وفطنة، في وقت استحكمت فيه السّلطة الفرنسيّة وشملت سلطتها ربوع الجزائر.

تؤرّخ منظومة الشّيخ محمّد المهدي السّكلاوي لتعاليم الطّريقة الرّحمانيّة ووصاياها إلى مريديها في كلّ مكان.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

ابن عاشر، أبو محمّد عبد الواحد ابن عاشر الفاسيّ (دت). متن ابن عاشر المسمّى بالمرشد المعين على الضّروري من علوم الدّين. القاهرة: مكتبة القاهرة لصاحبها علي يوسف سليمان.

باش تارزي، مصطفى بن عبد الرّحمن القسنطيني (مخطوط). المنح الرّبانيّة في بيان المنظومة الرّحمانيّة. بجاية (الجزائر): مخطوطات المكتبة الموهوبية.

البيطار، عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم الميداني الدمشقي (1993). حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر. تحقيق: البيطار، محمد بهجة. بيروت: دار صادر.

الجلالي، محمّد الصّغير (1916). تعطير الأكوان بنشر شذا نفحات أهل العرفان. الجزائر: المطبعة الثّعالبيّة.

سعد الله، أبو القاسم (1998). تاريخ الجزائر الثقافي. بيروت: دار الغرب الإسلامي. ط:1.

السّكلاوي، محمّد المهديّ (مخطوط). منظومة السّكلاويّ. تورنتو: مكتبة جامعة تورنتو.

السّكلاوي، محمّد المهديّ (مخطوط). منظومة السّكلاويّ. طوكيو: مكتبة جامعة طوكيو.

السّكندريّ، تاج الدّين ابن عطاء الله (1353هـ). عنوان التّوفيق في آداب الطّريق. القاهرة: المطبعة العثمانية المصريّة.

قاسمي، عبد المنعم الحسني (2009). الطّريقة الخلوتية الرّحمانية: الأصول والآثار. رسالة دكتوراه. جامعة الجزائر. كلية العلوم الإسلامية.

المغراوي، أحمد بن أبي جمعة الوهراني (1975). جامع جوامع الاختصار والتّبيان فيما يعرض للمعلّمين وآباء الصّبيان. تحقيق وتعليق: البدوي، أحمد جلولي. وبونار، رابح. الجزائر: الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع.

نويهض، عادل (1980). معجم أعلام الجزائر. بيروت: مؤسّسة نويهض الثّقافيّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر.